فى حجرة صاحب ديوان . . . !

استأذنت فسرعان ما أذن لى بالدخول عليه ، ولقينى بترحاب وبشاشة يعرفهما فيه كل من دخل حجرته ، وقل فى أصحاب الديوان من كان له مثل أريحيته ونبله على رفعة منصبه وسعة نفوذه ، فأن أكثرهم وا أسفاه لتسفل نفوسهم بارتفاع مناصبهم ، وإنهم ليتأبهون على الناس ويتكبرهون لهم حتى لكأنهم يحيون ويميتون .. وليس لهم فى الواقع من الأمر شىء ..

وإنه ليزلنى منه منزلة الصديق وأنا تلميذه ، ويرفع مكانتى عنده ، ويحب « منظارى » ولا يفتأ يحدثنى عنه .

ومن أعظم ما حببه إلى على كثرة ما أحببت من صفاته ، أنه يستمع فى أناة عجيبة إلى كل شاك ، لا يتبرم ولا يقاطع ولا ينفد صبره ، ثم يقول ما له وما عليه ، لا يلتوى ولا يغالط ولا يتحفظ ..

كان على مقعد قريب من مكتبه وكيله فى العمل ، وهو يكبر رئيسه فيما أعلم بنحو سبعة أعوام ويسبقه فى التخرج بمثل هذه السنوات ، ولم يخف على منظارى أن بنفسه من ذلك شيئاً بل أشياء . .

واستبقانى الرئيس بعد أن أفضيت إليه بما جئت من أجله ؛ ودخل شاب بعد أن أذن له فسلم وظل واقفاً ، وقرأت فى وجهه أنه يكتم غضبه ؛ وأذن لقادم آخر فدخل وهو كهل فى أول الكهولة فيما قدرت ، وأشار إليه الرئيس فجلس على مقعد ينتظر دوره فى الكلام . . . . ولمحت كذلك فى وجهه أنه يمتلىء حفيظة وغضبا ..

وقال الرئيس للشاب : أظن أنه ينبغى أن تسافر فأن فلاناً بك مصر على ألا يقبلك بعد اليوم عنده ؛ ومشت فى هيكل الشاب رعدة وقال فى عبارة مضطربة وفى لهجة تصور مرارة نفسه . معنى ذلك أن الموظف بهيم لا إرادة ولا رأى ولا كرامة له ؟ لم لا يُفهم فلان بك أنه أخطأ حتى لا يعود ثانية إلى الخطأ ، وإلا فما وجه خطأى أنا كيلا أقع فيه من بعد ؟ .. ينبغى إذاً أن أصانع كل رئيس على حساب الحق والكرامة والصالح العام .. لا . لا .. هذا كثير . .

وظلت فى وجه الرئيس بشاشته على الرغم مما كان يرتسم على محياه من علامات الألم لما يقول الشاب ، وقبل أن يتكلم الرئيس ، انطلق ذلك الكهل الذى كان ينتظر دوره . وقد نهض كالخطيب فقال يخاطب الشاب : اسمح لى أن أنصح لك نصيحة مجرب : طلق الكرامة والذمة والحق والأمانة ما دمت قبلت الوظيفة كرامة ؟ رأى ؟ إرادة ؟ إنك يا بنى تحلم . أنت فى مصر . إنك تكلف نفسك رهقاً شديداً إذ تمسكت منذ الآن برأيك وحكمت ضميرك وأرضيت خلقك .. أنت يا بنى عبد .. لا تغضب فأنا عبد مثلك . . وكل موظف عبد من أكبر كبير إلى أصغر صغير وإنما يستعبد بعضنا بعضا ... كرامة ؟ رأى ؟ ضمير ؟ ... أنت فين ؟ ... المسألة أكل عيش بأى شكل ، وكل واحد لا يهمه إلا نفسه .. الصالح العام ؟ أين هو ... احنا فين ؟ ... داحنا فى مصر ...

وظل صاحب الديوان على هدوئه وبشاشته ، وجلس الخطيب الكهل بعد كلام طويل من هذا القبيل ؛ وأخرج الشاب ورقة من جيبه فدفعها إلى الرئيس فإذا هى استقالته ؛ وراجعه الرئيس متلطفاً ثم استمهله يومين لينظر فى الأمر ؛ وخرج الشاب ، والتفتُ إلى الكهل فإذا قضيته هى قضية ذلك الشاب ولكنه كما قال لا يستقيل لأن له بنين وبنات ينفق على تعليمهم وليس يملك غير مرتبه . . ووعد الرئيس كذلك أن ينظر فى أمره من أجل أولاده فانصرف وهو يقول حسبى الله ...

ونظر إلى الرئيس وقال باسما : كأنى أراك تكتب «منظارك» ؛ وما كاد يلتفت حتى طلب الأذن مستأذن فأدخل ، فإذا بشاب فى نحو الخامسة والثلاثين دمث مهذب فيما يبدو ، فى وجهه من الهم والكدرة أكثر مما فيه من غضب ، وسلم وقال ، أنا فلان ، وسرد تاريخ حياته ، ثم ذكر أن فلاناً من فرقته رقى وهو ثانى الفرقة ، وأنه هو لم يرق وهو الأول ، ويجب أن يعلم لم تخطاه الثانى ، فإن كانت له عيوب فما يشق نفسه أن يعرفها ، أما أن يقال له إنك « ممتاز » وأما أن يثنى عليه رؤساؤه جميعاً ثم يترك

ويرق من هو دونه فذلك ما لا يستطيع أن يسيغه ولا أن يحمل على قبوله عقله ، وهو ما لا تطيقه كرامته .

وعند ذلك انطلق الوكيل الذى ظل صامتاً منذ أن دخلت ، فأخذ دور ذلك الكهل الخطيب ، وقال فى اتزان ولكن فى كثير من التحمس : اسمع يا أستاذ ألا زلت من السذاجة ... لا تؤاخذنى ... ألا زلت من الطيبة بحيث تفهم أن الأمر أمر كفاية واستحقاق ... إبحث تجد صاحبك تزوج حديثاً فترقى أو جرى فى ركاب عظيم فنال الأجر أو هو قريب فلان باشا أو علان بك ، أو غير ذلك مما أستحى أن أذكره ، فأن استطعت أن تفعل مثله أو يكون لك مثل ظروفه فستظفر بالرقى وإلا فستبقى حيث أنت إلى أن يشاء الله . أنت فى مصر على رأى صاحبنا الذى خرج ... أنت فى مصر يا بنى ... أنظر فها أنذا بينى وبين الستين أربعة أعوام وقد تخطانى من لا أحسبهم جاهدوا فى الحياة جهادى وخدموا البلد خدمتى ... ثم ضحك ضحكة مرة ونظرت فأذا فى وجه الرئيس شىء من الحرج وفى عينيه ما لا يخفى معناه من اختلاج ، وفطن الوكيل فتدارك الأمر قائلا ... لا مؤاخذة يا بك فأنت ذو فضل وما عنيتك بما أقول ... معاذ الله ، ثم ضحك ضحكة أخرى لم أدر أقصد بها التبسط أم قصد إظهار ما فى نفسه من غضاضة .

وقال الرئيس لهذا الأستاذ : اترك لى مذكرة فسأنظر فى أمرك ، وقال الأستاذ وهو يهم بالانصراف إنى سأقبل على عملى غير متأثر بشىء وإن كان الالم ملء نفسى ولكنى أخشى أن يأتى الوقت الذى أصبح فيه كالحصان تدفعه العربة إن لم يجرها ... وضحك الوكيل قائلا ... لست أول عبيط ولن تكون الأخير ... أتظن أن فى الرؤساء واحداً يعنى بأن يفكر فى هذا ؟ حسبه التفكير فى نفسه .

ونظر الرئيس إلى ضاحكا وقال . وأنت ما شكواك ؟ فقلت إنى أستكبر أن أشكو ... هل تكتب هذا الذى رأيت وسمعت ؟ قلت لست أصبر إلا يجهد حتى أكتبه .

وقال الوكيل وما جدوى كتابتك ؟ يظهر أنك عبيط آخر ... لا تؤاخذنى . . اكتب ما شئت إنك لا تسمع من فى القبور ... أتحسب هذه أموراً مجهولة تكشف عنها بما تكتب فتنبه ذا غفلة ؟ كلا إن ذلك كله معلوم ، وقد شاع الفساد حتى شمل الدولاب كله فماذا تقول ؟ وماذا تريد بكتابتك ... أأنت صاحب معجزة ؟ والله لو جاءتك معجزة ما استطعت أن تغير ما نحن فيه . . . يا شيخ الله يفتح عليك .. أنت فى مصر .. ها .. ها .. ها .. غير الجميل كله وابدأ من جديد .

وتنهد الرئيس وقال لا أخفى عنكما وأحدكما زميلى والآخر تلميذى أنى كرهت العمل وأنى أتمنى لو استطعت أن أفعل فعل ذلك الشاب الذى دفع إلى استقالته ... أتدرون ماذا يقول ؟ يقول إنه يريد أن يهاجر إلى الأرجنتين لينسى أنه مصرى ! . إنى أريد أن أعمل شيئاً فلا أستطيع .

لقد فسد الدولاب من فوق فنزل الفساد إلى كل جزء . . . ها أنذا أسمع الشكايات طول يومى ثم أرفع الأمر إلى من هم فوق فلا أظفر بشىء . وأحمل الأوراق المكدسة إلى منزلى فأسهر الليل فى تصريفها وعملى لا يعدو أن يكون فى الغالب تنفيذ ما أومر به .

الخفيف

مطبعة الرسالة

تقـــدم قريباً

من وراء المنظار

صور انتقادية فكهة من حياتنا الاجتماعية

للأســـتاذ

محمود الخفيف